الحراك القبلي في المغرب الأوسط مابين القرنيين 3-4هـ، قراءة في نموذج قبيلة كتامة

The tribal movement in the central Maghreb between the two centries 3-4H, a reading on the Kutama tribe model

بن مهية إبراهيم [1] بوقاقة حليمة [2]

[1] جامعة أحمد بن بلة وهران(الجزائر)، benmehaia .07@gmail.com

[2] جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية(الجزائر)، halimabokaka@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/08/12 تاريخ القبول: 2021/09/14 تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص:

استعان جاك بيرك بعلم الأنساب لتفسير ظاهرة الانقسام في القبيلة المغاربية، في حين تحاول الأبحاث المعاصرة، تفسير الظاهرة بالاعتماد على مقاربات منهجية أخرى باستخدام علم التاريخ، وإن كان البحث في مثل هذا الموضوع تواجهه مجموعة من الصعوبات منها: مشكلة اختفاء تسمية القبيلة وتعويضها بأسماء أخرى، أو ظهور نفس التسمية في المصادر التاريخية بعد اختفائها بفترة تاريخية معينة، بالإضافة إلى مشكلة الانتشار الجغرافي للقبيلة في أكثر من منطقة، وهذا ما نحاول معالجته من خلال إختيارنا لنموذج قبيلة كتامة..

من خلال إعتمادنا للمنهج التحليلي لمختلف النصوص التاريخية للفترة الفاطمية التي بيّنت لنا توزيعا جغرافيا للإثنونيم كتامة في الشرق إلى غاية سلسلة جبال كيانة، وإلى الغرب في منطقة الونشريس، ونهدف من خلال هذا المقال التطرق إلى طبيعة التحرك المجالي الذي عرفته قبيلة كتامة، وكيف أثّر على إختفاء تسميتها، وتحوّلها لاحقا إلى كنفدرالية قبلية، تنكر الإنتساب لأصولها الحقيقية وتضعها في نسب قبيلة أخرى.

كلمات مفتاحية: قبيلة كتامة، الحراك القبلي، السلطة الفاطمية، النسب القبلي، جبال كيانة.

Abstract:

Jacques Berque used genealogy to explain the phenomenon of division in the Maghreb tribes, while contemporary research attempts to explain the phenomenon by relying on other methodological approaches using the science of history.However, research on such a topic faces a number of difficulties, including: the problem of the disappearance of the tribe's naming and it's replacement with the other names, the appearance of the same name in

المنارة للاستشارات

ww

historical sources after its disappearance in a certain historical period, and the problem of the geographical spread of the tribe in more than one area.

The last one is what we are trying to address through our choice of the Kutama tribe model. We will study this topic by relying on the analytical method of the various historical texts of the Fatimid period which showed us a geographical distribution of the Kutama ethnonim in the east to the Kiyana mountain range, and in the west in the Al-Wancharis region.

We aim also through this article to address the nature of the spatial movement that the Kutama tribe knew, and how it affected the disappearance of it's naming and turning it later into a tribal confederation, dening affiliation with its true origins and places it in the lineage of another trib.

***Keywords**: the Kutama tribe, the tribal movement, the Fatimid authority, the tribal lineage, the Kiyana mountains.*

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

استمدّت السلطة الفاطمية سيادتها من خلال ممارستها للقوة الانفرادية بقبائل كتامة، في مقابل تجذّر القوة العصبية لقبائل هوارة وزناتة التي تطوّرت في هوامش المغرب الأوسط، حيث جذبت الأسرة الفاطمية احتياطاتها من العنف العسكري الذين يحاولون احتواءه، إن فضاءات التمرّد التي وصفها إبن خلدون في نصه بالبدو، وعبّر عنه جاك بيرك بالداخل المتعدد والشرس(عادل المساتي،2010، ص52) سيولّد التحالف الذي يهزم هيمنة السلطة ويضعفها، ويحاول التأسيس لهيمنة جديدة على السكان العزل، وعليه فإن استقرار السلطة الفاطمية يستدعي تحييد مساعديها من رجالات كتامة، من أجل منع احتكار القوة العسكرية، من طرف القبيلة التي قد يترعرع فيها المنافسون، وبالتالي سيتم القضاء على أعضاء العصبية الأولى، أو إنزالهم إلى مرتبة الشرف ووضعهم في منافسة مع نخب حربية جديدة قادمة من الهامش.

على هذا الأساس شكّل دخول قبيلة صنهاجة التحالف مع السلطة الفاطمية، بدءا من أحداث ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد سنة 331هـ، مرحلة بداية تفكك العصبية الكتامية بعد قرابة قرنين ونصف من الخدمة العسكرية، إنّ اعتمادنا على المنهج التحليلي لمختلف نصوص الفترة، قادنا إلى ملاحظة هامّة وهي اختفاء تسمية كتامة بشكل تدريجي وذلك بعد وفاة الخليفة المنصور وخلافة المعز لدين الله الفاطمي، منذ هذه الأحداث وبصرف النظر عن هذه الإشارات المعزولة، نادرا ما نجد كتامة حاضرة في بلاد المغرب، لقد استنفذت قوتهم بسبب قرن من القتال في خدمة الفاطميين ورحيل جزء

المنارة للاستشارات

ww

هام من تعدادهم أولا إلى القيروان والمهدية ثمّ إلى مصر وتمت إزالة كتامة من قبل صنهاجة، لقد أدّت هزيمة الشيعة في بلاد المغرب خاصة بعد رفض الحمّاديين لها إلى الإدانة الأخلاقية لكتامة وتخلت بدورها عن دعمها بسبب حالة التدهور التي وصلوا إليها وتمّ تقديم أنفسهم على أنهم من نسب قبيلة أخرى كما بين ذلك ابن خلدون.

وعليه سنعرج من خلال هذا المقال إلى أهم الدوافع التي أدّت بقبيلة كتامة إلى هذا التحول الهام سيسيولوجيا وجغرافيا إلى غاية صعود قبيلة صنهاجة وتحديدا فرع تلكاتة لحكم بلاد المغرب الأوسط بداية من أواخر القرن 4هـ.

2. الحدود الجغرافية للمجالات الكتامية:

يعد الموقع الجغرافي من الأساسيات الأولى في التنظيم المجالي، وتأثيره في التمركز السكاني لمختلف الجماعات البشرية لاحتوائه على عدة أوساط متباينة، (سهل، جبل، تل.....)، والتي بدورها تتحكم في نشاطات الإنسان، اذ اعتمدها المؤرخون اللاحقون كمعيار للتصنيف السكاني لبلاد المغرب، فبالنسبة لكتامة محور دراستنا تبرز أهميتها منذ العصور القديمة كمجال يقع ضمن التقسيم الثلاثي: نوميديا، نوميديا البروقنصلية، وموريطانيا السطايفية، هذه الكيانات الإدارية الثلاث تميزت باستيطان مجموعتي ucutumani شمال سطيف وميلة و salasan في شمال قسنطينة، اختفى الاسم الثاني، لتستمر مجموعة الأوكوتوماني بعد أن عربت إلى مسمى كتامة في كتابات مؤرخي وجغرافيي الفترة الوسيطة.(Alloua Amara,2016.p145)

أولى النصوص الجغرافية التي بحوزتنا والتي لا تشير إلى حدود المجالات الكتامية بصفة ثابتة هو نص اليعقوبي (289هـ)، يشير المؤلف بداية إلى أن أول منازل أو ديار البربر هي مزاتة وهم من الجماعات الأعجمية القديمة.

المجالات التي أشار إليها اليعقوبي والتي ستصبح في الفترة اللاحقة فضاءات كتامية ابتداء من 280هـ، مرحلة الدعوة الفاطمية، هي: ميلة، مدينة ذات حصون بولاية موسى بن العباس من بني سليم، ثم يشير إلى الواجهة الساحلية ممثلة في جيجل وهو مرسى تابع لمدينة ميلة، وهذا ما يجعلنا نفترض أن جيجل في هذه الفترة لا تمثل سوى مرسى ولم تتحول بعد إلى مدينة. إلى جانب مرسى قلعة خطاب، مرسى أسكيدة، مرسى مابر، مرسى دنهاجة، ويضيف مدينة سطيف بسلطة أغلبية أيضا تخدمها عصبية أسد بن خزيمة (اليعقوبي ،1980،ص140) .

لم يشر اليعقوبي إلى المجموعات المحلية التي تشغل هذه الفضاءات السهلية والساحلية، معلوماته تؤكد سيطرة العصبية العربية وتغلّبها على المراكز الحضرية، على غرار مدينة بلزمة (اليعقوبي ،1980،ص141).

لا يعطينا اليعقوبي أي إشارة لكتامة ومجالاتها، فهل نحن أمام صمت واضح للنصوص، أم للحياد المذهبي والسياسي لهذه القبيلة التي يبدو أنها مغيبة في هذه الفترة.

المنارة للاستشارات
ww

الاجابة على هذه التساؤلات تقودنا إلى نصوص الفترة الموالية، التي لا نجدها إلا في مؤلف ابن حوقل، فهو يشير بداية إلى الواجهة الساحلية بدءا من مرسى الخرز قرية نبيلة، مدينة بونة متوسطة، مرسى جيجل، مرسى بجاية، مرسى بني جناد(ابن حوقل ،1996،ص76).بخصوص المناطق التلية فهو يشير إلى كتامة من خلال الطريق ما بين القيروان والمسيلة على بلاد كتامة عبر المدن التالية: تاميديت، تيفاش، قصر الافريقي، أركو، تيجس، المهريين(ابن حوقل ،1996،ص86) ، تامسنت وهي سوق لكتامة ومزاتة، ومدينة دكمة تشغلها كتامة بنسبة أكبر(ابن حوقل ،1996،ص86-87). بالإضافة إلى قسنطينة وهي من المجالات التابعة لكتامة وبلزمة التي ذكر أنها من المدن المستحدثة للعرب(ابن حوقل ،1996،ص91-94). معلومات ابن حوقل في هذه الفترة تمثل مرحلة التباين الحقيقي للمجالات الكتامية ما بين كتامة الجبل والسهل، أي المجالات الخالصة والتابعة.

بالعودة إلى مجال المصنفات الجغرافية دائما، في نصوص أبو عبد الله البكري (ق، 487هـ)، نجد أنفسنا أمام تطور ملحوظ فيما يخص العمران بالمجالات الكتامية بتحوّل بعض القرى إلى مدن كبيرة كما هو الحال بالنسبة لمرسى الخرز، رافق هذا التطور أيضا دخول بعض الجماعات المحلية ضمن الفضاء الكتامي وخروج أخرى والتحاقها بتخوم المجالات الإباضية كما هو الحال بالنسبة لجماعات ميلة الذين تم ترحيلهم إلى مدينة باغاية بعد تخريبها سنة 387(أبو عبد الله البكري،دص،ص64).

يرسم لنا البكري حدود المجالات الكتامية بدءا من مدينة توفوت على الطريق الرابط ما بين القيروان وقلعة أبي الطويل ذاكرا كل من: مدينة تبسلكى، تامسلت، دكمة، والغدير، وعلى الطريق الرابط بين القيروان وبونة تركيبة بشرية متنوعة ما بين عرب وبربر من ضريسة ومرنيسة إلى قرية المهريين، إلى العمارات ما بين بونة والقيروان أولها مدينة زانة أين تتمركز مصمودة وأوربة في الأطراف التابعة لبونة(أبو عبد الله البكري،دص،ص54) .

تتجلى لنا حدود المجال بوضوح في نص البكري من خلال الطريق الرابط بين القيروان ومرسى الزيتونة بدءا بمدينة تيجس التي تجمع عدة عصبيات: نفزة، ورغوسة، بني ونموا، كزيانة، حمزة من زناتة، بعدها مدينة قسنطينة التي يسكنها قبائل شتى من أهل ميلة ونفزاوة وقسطيلية وهي حسب البكري فروع تابعة لكتامة، ثم مدينة ميلة وهي تمثل غرر مدن الزاب في هذه الفترة(أبو عبد الله البكري،دص،ص63).

1.2 أهمية الموقع الجغرافي:

المنطقة وحسب طابعها الجغرافي الجبلي، تعتمد بشكل رئيسي على المنتجات الزراعية والحرف وبيع الماشية ، في هذه المناطق التي يصعب الوصول إليه، يعمل السكان في أراضيهم مع تربية الماشية الصغيرة والحفاظ على الحرف المنزلية وبالتالي فإن المنتجات الأساسية من: الزيتون، زيت الزيتون، التين، الخضار، الحليب لاتلبي جميع الإحتياجات، خاصة خلال فصول الشتاء الثلجية، أين تكون في

المنارة للاستشارات
ww

أغلب الأحيان الحرف اليدوية هي موضوع المقايضة والتسويق مع مدينة سوق حمزة الحضنة وحتى مشارف بلاد الغرب(**Adolphe Hanoteau,1937.p412**).

يتيح السوق الأسبوعي إخلاء الإنتاج المحلي وخاصة الزراعي منه، الذي يشكّل مصدرا إضافيا لدخل الأسرة، كما يسمح للتجار من تنقلاتهم المستمرة بين الأسواق من تسويق بضائعهم، على الصعيد الاجتماعي والثقافي، يتيح السوق بفضل الاجتماعات التواصل بين الأفراد ونشر الثقافات المحلية والمحافظة عليها ، من خلال التبادل الذي يحدث نتيجة النشاط الغير محدود مابين الجبليين وسكان السهول، والدخول في علاقات تبادلية، ومن الطبيعي أن يتحدث البعض لغة الآخر(**Henri Fournel,1854.p40**).

يحتّل الموقع الذي تم اختياره بدقة لإقامة السوق الريفية لكتامة، مكانة مهمة جغرافيا في الطريق الرابط بين المسيلة عاصمة فضاء المعاضيد، وسور الغزلان (**Auzia**)، هذا الطريق احتفظ بأهميته منذ الفترات القديمة، إذ يضعه استفان غزال على الخريطة المرفقة لأهم المناطق الأثرية الرومانية الخاصة بمدينة المدية، تحديدا عند الطريق الرابط مابين **Sitifis-Auzia** في سهول مجانة جنوب مدينة الغدير، عند حدود بلاد كتامة، طبعا تتيح مدينة سور الغزلان الواقعة بين مصبات وادي لكحل ربط المنطقة (بلاد كتامة) من الناحية الشرقية مع بلاد الزواوة، وتصلها بسهول الغرب عن طريق مدينة سور جواب، وجنوبا تضعها على أبواب اقليم الحضنة من خلال موقع مجانة، التي تربط بلاد صنهاجة عبر مدينة سوق حمزة(**Sthephane Gzel,1911.p08**).

يشير البكري(**R.Blanchère,1957.Sp**) بوضوح إلى القرى والبلدات الواقعة في حدود بلاد كتامة والتي احتضنت قوافل قبائل جبال كيانة و صنهاجة،تاموديت، ثم تيفاش، التي تحيط بها مراعي وادي الدنانير، بالإضافة إلى تيجس، محطة توبوت

وتابسلكى الواقعة على جانبي جبل أنف النسر(**Nifenser**)، ومنها إلى المهريين، ومحطة تامسلت (تامزلت)، إلى غاية دكمة(**Elbekri,1858.p130-131**) ، عند هذه المشارف تتواجد قبيلة مزاتة التي منحت اسمها للمنطقة ولا تزال الذاكرة المحلية للمكان تحتفظ لنا باسم دوار مزيتة(**Octave Tessier,1865.p100**) ، حفظت المتون الإباضية نسب القبيلة ودعمها المالي للحركة الخارجية وتأسيس الإمامة الرستمية، وحتى إلى غاية القرن الثالث الهجري سنجد حضورهم في النصوص الإسماعيلية يأخذ نفس الشكل كجماعات تتواجد بالخيام ولها رأس مال كبير من الإبل، مما لاشك فيه أن حضور اسم شيخهم يوسف الغاطشي في كتاب القاضي النعمان، يدعم دوره في تكوين سوق ريفية قبلية آمنة، عندى ملتقى الطرق التلية، وطريق الهضاب العليا.

الممارسة التجارية الواسعة على أطراف كتامة مع مجموعات إباضية (نفزاوة وهوارة)، معربة في مواطنها الأولى تحت تأثير الإشعاع الفكري حول تأسيس العاصمة الرستمية تهرت (إحدى مراكز الأسلمة)، إذ أدّى التحول العميق للإباضية نحو الإسلام إلى تعريب كبير لهذه القبائل(**Virginie**

المنارة للاستشارات
ww

(**Prèvost,2011.p65**) وعلى غرار مزاتة، مسالتة، ورفجومة يوقع كذلك شارل فيرو وجود جماعات سدراتة في سهول مجانة(**Charle Feraud,1872.p190**) .

2. التركيبة الإجتماعية لقبيلة كتامة:

كما هو معلوم من خلال تتبع النصوص الفاطمية المعاصرة للفترة بين القرنيين الثالث والرابع هجري، التي وقعّت لنا أغلب الفروع القبلية المنتمية للمجال الكتامي، فإن كتامة هي: مسالة، مزاتة، جيملة، أجانا، ملوسة، لهيصة، متوسة، سكتان، دنهاجة، غشمان، بالإضافة إلى توزع القبائل التالية: مسالة، سماتة، مزاتة، ورفجومة في المجال الكتامي صنفت لدى النسّابة أنهم من موطن طرابلس ونفزاوة(القاضي النعمان ،2005،ص30-37).

بالنسبة للفروع الغير كتامية، أسعفنا الحظ في العثور على أسماء سبع شخصيات من قبائل مختلفة: حسن بن القاسم اللواتي(لواتة) ، تميم الوسفاني(وسفانة)، إبراهيم بن غالب المزاتي والذي أرسله أبو عبد الله الشيعي إلى مدينة سجلماسة مع 200 فارس من كتامة ومكث بها إلى أن صار واليا عليها سنة 297هـ، لكن سرعان ماثار عليه أهل سجلماسة وقتلوه رفضا للشيعة ونصبوا في مكانه واسول بن مدرار، (ابن عذاري ،دت،ص156) (مزاتة)، إبراهيم بن محمد اليماني الهواري(هوارة)، إبراهيم ابن المذيلي(مذيلة، حارث المدغري(مدغرة)، اسماعيل بن نصر المغاري(بني مغار)، إشراك الجماعات غير كتامية، كدعاة أوائل بالنسبة لبني أمغار، أو كوحدات عسكرية تابعة للجيش الفاطمي، يعيد إلينا صورة التفكك الذي طال خصوصا: لواتة وهوارة، في حركة المد الخارجي ونقل المركز السياسي الرئيسي للإباضية في شمال افريقيا من طرابلس إلى تيهرت (Tadeusz Lewicki,1957.p309)ثم سقوط إمامة تاهرت، هذا دون أن ننسى المشاركة الحصرية لقبيلة صنهاجة التي تعود إلى فترة القائم بأمر الله، وتدعيم حضورها أكثر من خلال بناء مدينة آشير زيري سنة 324هـ(محمد عبد الله سالم العمايرة ،2010،ص65).

أمّا الإقتراحات التي قدّمها ابن خلدون والمتعلقة بأصولهم العرقية فهي متأخرة عن الفترة الفاطمية بقرابة أربعة قرون، مما يثبت أن نشأة الأصل العربي لكتامة، ليست سوى صيغ وهمية ومتأخرة(Ibrahim Jadlla,2003.p503) ، وجدت وظهرت مع تحول القيادة السياسية للحركة الفاطمية نحو المشرق، واختفاء كتامة بظهور عصبية صنهاجة كجماعة موالية ومناصرة للقائم في فترة خروج أبي يزيد(ابن خلدون،2001،ص53) ، وضع الخلفاء الفاطميون لأسباب سياسية تتعلق بهجرة كتامة إلى المشرق الأصل العربي لهم، إذ وصفهم القائم بأنهم أبناء المهاجرين والأنصار واستمر المعز في تأكيد نسلهم من جالوت الذين طردهم داوود من المشرق لفترة طويلة.

3 النخب العسكرية الكتامية والتراتبية الإجتماعية::

المنارة للاستشارات
ww

مع الجماعات الإسماعيلية يبدو العمل جد منظم في الرواية الإسماعيلية التي وصلتنا مجزأة إلى قسمين: قسم خاص بمرحلة العمل الدعوي يمثلها أبو عبد الله الشيعي، وقسم خاص بتكوين الدولة وممثلها أبي عبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي.

في نهاية الفترة الدعوية اعتمدت البعثات الفاطمية على عقيدة الأئمة الشيعة وكان عملا سريا، وبعد وصولها إلى الحكم مرحلة (الدولة) احتاجت السلطة الفاطمية إلى روايات شرعية جديدة، أدت إلى إعادة صياغة عقيدة الإمام الإسماعيلي وحكم الأئمة الفاطميين من أهل البيت وكان القصد منه توفير أساس عالمي للحكم الفاطمي(**Sumaiya Hamdani,2008.Sp**) من خلال تشريعات القاضي النعمان، الذي قدمت معظم أعماله في خلافة، المعز لدين الله الفاطمي، ويشكل مؤلفه افتتاح الدعوة، نموذج خاص بفترة التحوّل التي رافقت مرحلة شمال إفريقيا وتأسيس المجتمع السياسي في مدينة تازروت بفضل كتامة الذين احتضنوا المشروع الفاطمي منذ بداياته، سيتحولون من خلال عمل القاضي النعمان إلى أولياء الله، وبالتالي فهم يشكلون النخبة الإجتماعية الجديدة(**Annliese Nef,2016.p17**) ، إلى جانب استخدام مصطلح الإخوان، بين أعضاء المجتمع الجديد لإقرار مساواتهم، لكن هذه المساواة سرعان ما تفسح المجال لتسلسل هرمي جديد يروج للقادة العسكريين والدعاة الذين تم تعيينهم من قبل أبي عبد الله الشيعي دون مراعاة التسلسل الهرمي السابق.

وقد تمّ تصنيف هؤلاء على أنهم مشايخ وهو يكشف عن إدراك واضح ومشترك للتحديات المرتبطة بإنشاء الدولة الجديدة، على غرار الدولة الأغلبية فهي لم تعتمد على رجالات عسكرية متخرجة من مؤسسة الرباط، بل استفادت إلى أقصى حد في فترة التمهيد على العنصر الكتامي، وتم خلق نخبة محلية سرعان ما تعاقبت على مناصب سياسية أغلبها متعلق بقيادة الجيوش ثم بولاية المناطق المستول عليها، بغرض إدارة الأقاليم..

4. الحراك الجغرافي لقبيلة كتامة:

1.4 الحضور الجغرافي لكتامة في المناطق الشرقية::

إن مشاركة الجيش الكتامي في حملات الفاطميين إلى الشرق، تكشف لنا عن علاقة العسكري بالنخبة السياسية من خلال إسناد وظيفة والي مدينة لنبلاء عسكريين خاضوا تجربة قادة عسكريين في المدن التي تمت محاصرتها والإستلاء عليها، ولنا في النصوص الإسماعيلية أمثلة عن ذلك: فحسن بن واصل الملوسي كان قائد جيش، وأبو حميد دواس بن صولات اللهيصي والي تهرت، وأبو يوسف مكنون بن ضبارة الأجاني كان واليا لمدينة بغاية(عماد الدين القرشي،1985،ص124-153)

كما أن فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد قد حظي من خلالها المشاركون الكتاميون بثناء الخليفة المنصور، من خلال الخطاب الذي خصهم به، والذي ورد في مؤلف أبو علي منصور الجوذري(علي منصور الجوذر،دت،ص51).

المنارة للاستشارات
ww

، على أن هذا الثناء سيتوج بمجموعة مكاسب لشيوخ كتامة وعائلاتهم عند مرافقته لمدينة المنصورية إذ أقطعهم ضيع هناك للإقامة هناك.

دون أن ننسى أن المؤلفات الجغرافية التي ألفت بين القرنيين 3-4هـ، تشير إلى تموقع كتامة في إفريقية، فمن خلال الطريق الذي ذكره ابن حوقل بين الحضنة وتاهرت، والذي يمر من تلمسان إلى المسيلة عبر: يلل، تنس، ويصعد في وادي الشلف، تستمر الأهمية المتزايدة لهذا المسار منذ القرن الثالث هجري مع تطوير ميناء التنس، وهي مدينة محورية في وقت اليعقوبي بين الطريق البحري إلى افريقية والطريق المباشر المؤدي إلى اسبانيا، ومع المنافسة غير المسبوقة على سلطة الخلافة، ستظهر المدن الساحلية والموانئ كنتيجة لهذا التطور، لكن الشهادات الوصفية المعاصرة لابن حوقل لا تكفي لمعرفة انعكاسات الموقف الكتامي اتجاه السلطة الفاطمية، بعد عقود سيتكون المشهد الجغرافي وحتى الزراعي لبلاد كتامة في شهادة البكري حينما يصف لنا الطرق المؤدية من القيروان إلى قلعة أبي الطويل، بحيث كانت بعض المدن التي تعبّر عن انتشار وتوسع كتامة تحت الحكم الفاطمي، جزء مهم من مجموع الطرق التي تربط القيروان بهوارة والجماعات الإباضية والواصلية، منها الطريق الذي يمر عبر أبه ثم الأربس ثم نهر ملاق، فحص بل، ومن نهر ملاق إلى مدينة تامديت، تيفاش، قصر الإفريقي، واد الدنانير، تيجس، إلى مدينة تابسلكى في سفح جبل أنف النسر، ثم إلى تامسنت ومنها إلى دكمة والغدير(أبو عبد الله البكري،دص،ص53).

من خلال الدراسة المتميزة لـ**paule campuzat**، الذي أعاد توقيع أغلب هذه المدن، فإن كل من: تامديت، تابسلكى، تامسنت ودكمة، بلغت أوج ازدهارها خلال فترة القرن العاشر ميلادي ضمن التوسع الجغرافي لقبيلة كتامة، إذ شكل موقعها الجغرافي الهام الذي تثبته أثار الطريق الرومانوبيزنطي الرابط بين مدينة الغدير وزراي، تمتعها بسهول واسعة ومراكز زراعية، سمحت مع مرور الوقت بإنشاء أسواق ريفية تابعة لكتامة ومزاتة(**Paule Louis,SD.143-211**) ، سمحت لهم بعرض ماشيتهم ومنتجاتهم الزراعية والحرفية، فالتقاطع الجغرافي والإثني لكتامة ومزاتة الذي يوقعه كارت من خلال خريطته بين سهل مجانة وجبال ونوغة(**Emest Carrete,1846.Sp**) تثبت حجم التداول التجاري بين المجموعتين، بعد مدة طويلة من العلاقات الاستغلالية والخدمة العسكرية في نموذج الإخضاع الذي قامت به السلطة الفاطمية، لقد تمت استعادة الإقتصاد الريفي الذي ساهم بدوره في استرجاع مشاهد العمران والقرى المتصلة على طول هذا الطريق، بفضل الهجرة والإندماج والتحول إلى المناطق الريفية(**Tariq Madani,SD.p164**) بعد تزايد التهم العسكرية التي طالت الكتاميين..

2.4 حضور كتامة في المناطق الغربية:

أدّت الإجراءات الصارمة للسلطة الفاطمية (الخشني،دت،ص38)، خصوصا المتعلقة منها بالجانب الجبائي إلى تمردات متتالية أعلنتها زناتة وهوارة، بعد رفضها أداء المغرم، انطلقت أحداثها بداية بموقعة فلك مديك سنة 299هـ(ابن العذاري،دت،ص166) ، واستمرت في شكل الحملات

المنارة للاستشارات
ww

الفاطمية إلى الغرب، والتي جاءت بهدف علني لتهدئة إضطرابات القبائل الداخلية ، أمام تزايد الضغط المالي الذي يفرضه توسع السلطة الفاطمية للسيطرة على المراكز التجارية الكبرى في الجنوب:الجريد، تاهرت وسجلماسة كفرصة على وجه الخصوص لتجارة الذهب.

احتلال الفضاء لا يختلف جوهريا عن الفترات السابقة، حينما تمت الإطاحة بمدينة تيهرت، وتوجيه الإهتمام ضد الأدارسة **(Chafik Benchakroun,SD.Sp)** في فاس وإقليم النكور، لكن هذه الهجومات لاتبدو كافية لتثبيت دائم لقوتهم في المنطقة، في وقت لاحق ستظهر علامات طموحاتهم ضد الأندلس في الحملة التي قادها أبو عبد الله الشيعي إلى التنس التي لاطالما اعتبرت واحدة من أهم الموانيء في العلاقات مع الأندلس ومخرج بحري للطرق التي تربط تيهرت، إذ سيكون من السهل السيطرة عليها من خلال التحالف مع قبيلة مغراوة، الذين يسيطرون على المناطق الساحلية بين تلمسان ووادي الشلف تحت قيادة زيري بن عطية المغراوي.

تضعنا النصوص التاريخية أمام مجموعة القبائل التي التفّت حول تأسيس الدولة الرستمية سابقا، وخاصة الضواعن منهم، والتي ستتعرض للتصفية ومغادرة مجالاتها،في نموذج لماية، نحن نعلم أن المعلومات الأولى لتوطنهم اقترنت بانتشار المذهب الخارجي إلى منداس، لكنها اضطرت للإنسحاب نحو طرابلس في حملة دواس بن صولات اللهيصي الكتامي اللذي غادر حاكما في تاهرت ثم دخل في علاقات مع بني مسكين في مدينة وهران، الذين انفصلوا عن الامويين وعرضوا تسليم مدينتهم إليه، وبعد فترة وجيزة استولت القوات الفاطمية على وهران.

(318Ernest Marçier,1888. p) لكنه سرعان ما أوكلت له مهمة الإطاحة بنظام الرستميين(ابن خلدون،2001،ص161) ، واستمدوا بنجدة قبائل مغراوة ممثلة في أسرة آل خزر، تزامنا مع محاولات ابن خزر استرجاع تيهرت وتحويل المدن الواقعة إلى غاية طنجة تحت سيادة قبائل زناتة.

وتطلب الرهان الفاطمي في المنطقة الإعتماد على قبائل مكناسة التي شكلت عبر امتدادها التاريخي طيلة القرن الثالث الهجري علاقات متينة بجماعات زناتة، آلت إلى مرحلة إنتقالية في الفترة الممتدة من 305هـ إلى 309هـ(الهادي روجي ادريس،1992،ص42) ، أفرزتها حملات مصالة بن حبوس المكناسي إلى فاس وابن عمه موسى بن أبي العافية صاحب تسول وبلاد تازة، تمكن خلالها من إجلاء الأدارسة عن بلادهم وإخراجهم من مدينة أصيلا وشالة وسارو بجموعهم إلى قلعة حجر النسر وانحصروا فيها(ابن أبي زرع،2001،ص84).

بناءا على هذه الإشارات التاريخية ستشير مصادر القرن 4هـ، إلى تواجد كتامة في إسبانيا، مدينة أصيلا بالمغرب، وإقليم الونشريس، فالوراق ونقلا عن ابن عذارى يذكر أن كتامة أصبحت فرع صغير من قبيلة مصمودة المتواجدة في منطقة طنجة، كذلك على الطريق من طنجة إلى فاس يشير البكري إلى تواجد كتامة في ذات المنطقة، بإختصار لقد تم تمثيل كتامة بشكل واضح خلال القرن 4هـ، على

المنارة للاستشارات
ww

الخريطة الجغرافية للجزء الشمالي من المغرب الأقصى، ولكن من الصعب الإلمام بشكل كلي بالأسباب الحقيقية التي دفعتهم إلى إختيار هذه المنطقة الجديدة للتوطن والإستقرار، لكن من الواضح أن هذه الهجرة مرتبطة بحروب الفاطميين من أجل إخضاع بلاد الغرب، وإحباط أهداف الهيمنة الأموية القرطبية في المنطقة(**Aleya Bouzid,1999. p149-150**)..

5. تفكك كتامة وتشكل آخر محتقر في التراتبية القبلية:

دخول قبيلة صنهاجة التحالف مع السلطة الفاطمية بدءا من أحداث ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد سنة 331هـ(ابو الحسن علي ابن الأثير ،1987،ص192) ، وتحديدا عندما قدّم زيري ابن منّاد الصنهاجي مناصرته للخليفة المنصور عند محاصرته لأبي يزيد في جبال كيانة وعقار **(Ahmed M'cherek,SD.p04)**، شكل بداية التفكك العصبية الكتامية بعد قرابة قرنين ونصف من الخدمة العسكرية، باعتبارهم الحلفاء الرئيسيين للسلالة الفاطمية، لقد أعطى الخليفة المنصور حليفه زيري الحق في جراية الوظائف وعقد له على قبائل البربر ممن دخل في طاعته(عماد الدين القرشي،1985،ص405) ، الإشارة الأولى التي حملت الإنهيار التدريجي لكتامة واختفائها من النصوص الإسماعلية، هي النتائج التي خلّفها إنقسامهم في معركة أبي يزيد حينما حينما اختلفوا حول كبون بن تصولا سنة 332هـ، إذ بقي قسم منهم تحت إمرته، وقسم آخر هرب تحت قيادة بدين بن محمد الجميلي(عماد الدين القرشي،1985،ص270).

لقد تم دفع أبو يزيد شيئًا فشيئًا باتجاه الغرب والصحراء. وتوفي عام 947/335. تحقق هذا النصر بفضل افتكاك مدينة المهدية المحاصرة بفضل زيري الذي أرسل مائة حمولة من القمح برفقة مائتي فارس و 500 عبد للخليفة المنصور، في هذه المواجهة فإن التشكيلة العرقية للجيش الفاطمي ستأخذ شكلا آخر لقد تمّ تقديم قبيلة صنهاجة على اليمين و قبيلة كتامة على اليسار(عماد الدين القرشي،1985،ص405).

بعد وفاة المنصور وخلافة المعز لدين الله الفاطمي، يبقى ذكر كتامة بشكل متقطع، أولا في مشاركتهم معه في غزو قلورية(عماد الدين القرشي،1985،ص585) ، ثم بعدها نجده قد خصهم بخطاب شكر وعرفان بعد النصر الذي حققه في حملته على ابن واسول في سجلماسة سنة 347هـ بقيادة جوهر الصقلي(عماد الدين القرشي،1985،ص606) ، وحينما تم توجيه الهدف إلى مصر، فقد تم ذكر شخصية جعفر بن فلاح الكتامي الذي تولى قيادة الجيش في مقاتلة الإخشيدية، ولما كللت الحملة بالنصر نجد قصائد للشاعر المقداد الكتامي في وصف فضائل كتامة(عماد الدين القرشي،1985،ص696).

منذ هذه الأحداث وبصرف النظر عن هذه الإشارات المعزولة، نادرا ما نجد كتامة حاضرة في بلاد المغرب، لقد استنفذت قوتهم بسبب قرن من القتال في خدمة الفاطميين ورحيل جزء هام من تركيبتهم أولا إلى القيروان والمهدية ثمّ إلى مصر وتمت إزالة كتامة من قبل صنهاجة، حينما أوكل

المنارة للاستشارات
ww

الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بلاد افريقية ليوسف بن بلكين بن زيري(ابو الحسن علي ابن الأثير ،1987،ص206)سنة 361هـ، بعد البلاء الذي قدمه في تتبع قبائل زناتة بقيادة أبي خزر خاصة في حادثة بغاية(ابو الحسن علي ابن الأثير ،1987،ص331).

لقد أدّت هزيمة الشيعة في بلاد المغرب خاصة بعد رفض الحمّاديين لها إلى الإدانة الأخلاقية لكتامة وتخلت بدورها

عن دعمها بسبب حالة التدهور التي وصلوا إليها وتمّ تقديم أنفسهم على أنهم من نسب قبيلة أخرى، يمكن أن نقول أن ابن خلدون هو أول من أشار إلى المعنى السلبي الذي أصبحت كتامة تحمله، والمرتبط برفض المذهب الشيعي، إن وصم كتامة بالعار زادت في القرن4هـ بسبب رحيل كتامة إلى مصر وإكتساح المذهب المالكي وتوسعه في المغرب الأوسط، إن عدم الإشارة إلى هذه النقطة من طرف المؤلفين المعاصرين للقرن الرابع، وظهورها إلى غاية فترة ابن خلدون تبين لنا استمرارية التنكر والإنتساب لقبيلة كتامة، في ضل استمرار تأثير البنى القبلية وتجذّرها في تحديد المكانة الإجتماعة للفرد ودوره داخل القبيلة.

التحوّل إلى نسب قبيلة أقوى من ناحية العدد والشوكة والسيادة المجالية هو ما يراه بقايا كتامة، الأنسب لتوفير الحماية لهم والإندماج في النسب الجديد يؤسس لعهد إجتماعي جديد، والفرد الذي يطلب حماية هذه القبيلة هو في حالة حكم إعدام إجتماعي(رحال بوبريك ،2012،ص146) كما عبّر عن ذلك رحال بوبريك، أي أن قدرة القبيلة على إحتوائهم داخل مجتمع قبلي يتحدد فيه موقع القبيلة بعدد رجالها القادرين على حمل السلاح، هو بمثابة إضافة عسكرية لها يمكنها من تجنيد طاقات إضافية يمكنها من الدفاع عن نفسها أو فرض هيبتها إذن فالحماية في هذه الحالة لها نفس وظيفة المصاهرة(رحال بوبريك ،2012،ص154).

استمرار إنكار كتامة لنسبهم لقرابة 4 قرون يحيل إجتماعيا إلى آليات إشتغال المحلي في التعامل مع الدخيل أو التعامل مع المغلوب ونبذه، انتحال المذهب الشيعي صار عارا وأحد التهم الموجهة لكل فرد يحمل نسبة الكتامي وإن كانت إشارات ابن خلدون قد حددت أن بقايا كتامة ليسوا كلهم ممن غير لقبه أي نسبته فهو يقسمهم إلى قسمين حسب الضريبة التي يدفعونها، فالذين ينتشرون عبر جبل الأوراس وبسائطه بقوا بأسمائهم لا تنالهم أحكام السلطة في خصوص دفع المغرم مع البقايا المتواجدين بالجبال مثل بني زندوي، والقسم الآخر المتوزعين عبر سهول قسنطينة وميلة وسطيف وحتى جنوب بجاية غيروا ألقابهم و ينكرون نسبهم وهو ماسيصطلح عليهم في القرن الثامن لاحقا بالسدويكش(ابن خلدون،2001،ص196).

وكما حمل الحراك الكتامي في إطار التوسع الفاطمي، كما رأينا من قبل إمتيازات إجتماعية تمثلت في الدور والأراضي والوظائف الإدارية التي تحصلوا عليها، إلى جانب إنتشارهم الكبير كقبيلة قوية حاولت الإلتفاف حول المشروع الفاطمي للوصول إلى السلطة، فقد حمل معه كذلك القمع التدريجي لها وكما

المنارة للاستشارات
ww

رأينا في نموذج القبائل الإباضية التي إلتفت حول المشروع الخارجي للوصول إلى السلطة وتأسيس العاصمة المحورية تيهرت، فقد تمّ قمعها واضطرت الفروع الضعيفة أن تحتمي بقبيلة كتامة، على غرار قبيلة ورفجومة، نفس النموذج يتكرر مع قبيلة كتامة التي تحوّلت من كنفدرالية عظيمة أرخت للشرق في ضل التواجد بالقيروان والمهدية ومصر المعزية من خلال العمل
الذي قدّمه حيدرة الكتامي في السيرة الكتامية والذي نتحسر لضياعه، فقد اضطرت هي الأخرى بعد زوال هيبتها أن تحتمي بقبيلة صنهاجة التي ستحكم بلاد المغرب بعدها.

6. خاتمة:

ما نستخلصه من العرض السابق، أن النسب العربي الذي أعطي لقبيلة كتامة من خلال النصوص الإسماعيلية، ماهو إلا محاولة لإستعادة مجد الخلافة بالبحث عن أصول مشتركة للكتاميين مع السلالة الفاطمية، وبالتالي فإن عودة كتامة إلى الشرق يمثل في الحقيقة ولاءهم ودفاعهم عن حق مشروع لأحفاد النبي.

توزّع بعض القبائل ذات أصول رعوية داخل قبيلة كتامة، ترجع بالأساس إلى نتائج حركة المد الخارجي، وتفكك عصبية هذه القبائل التي أوكلت لها مهمة التشيع القديم، وتعريب المجال الريفي لكتامة، أما بخصوص التنقل القبلي لكتامة فهو قد إرتبط أساسا بالسلطة الفاطمية وبالحملات العسكرية في الجيوش، والذي أدى إلى مجموعة نتائج أبرزها: دحر جماعات زناتة الرعوية إلى الغرب، والظهور القوي لقبيلة كتامة في مصنفات القرن4هـ، بعد أن سجلنا حضورها الضئيل بل النادر في مصنفات مرحلة الفتح العربي، وفي الأخير فإن التمثيل الحقيقي لقبيلة كتامة يحتاج إلى دراسات جادة على المستوى الإنتروبولوجي والطبونيمي وحتى الأثري..

7. قائمة المصادر:

1. عماد الدين، القرشي، (1985)، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، لبنان، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

2. اليعقوبي،(1890)، البلدان، لبنان، مطبعة بريل.

3. ابن حوقل،(1996)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة

4. أبو عبد الله، البكري،(1992)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، القاهرة، دار الكتاب الاسلامي.

5. الإدريسي،(2002)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،مكتبة الثقافة الدينية

6. ابن خلدون،(2001)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

7. النعمان، القاضي، (2005)، افتتاح الدعوة، لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

8. قائمة المراجع:

1. عادل، المساتي،(2010)، سوسيولوجية الدولة بالمغرب، سلسلة المعرفة الإجتماعية السياسية.

المنارة للاستشارات
ww

2. الهادي، روجي إدريس،(1992)، الدولة الصنهاجية تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

3. رحال، بوبريك،(2012)، زمن القبيلة السلطة وتدبير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي رقراق.

9. قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

1. Amara ,Alloua, (2016) ,les fatimides et le maghreb central :littoralisation de la dynastie et modes de contrôle des territoires in, les fatimides et la méditerranée centrale X-XIII siecles, revue des mondes musulmane et de la méditerranée n139.

2. Adolphe, Hanoteau,(1937), Aristide Horace Letourneux, la kabylie et les coutumes kabyles, Paris, imprimerie nationale.

3. Stephane ,Gsell,(1911), l'atlas archéologique de l'Algérie, lamdia, Adolphe Jourdan Fontemoing, , feille n14.

4. R.Blachère, (1957),Extraits des principaux géographes arabes, Paris.

5. Elbekri,(1858), Description de l'Afrique septentrionale, T, Mac Guckin de salane, Journal Asiatique.

6. Octave, Teissier,(1865), Algérie géographie, histoire, statistique, description des villes, villages et hameaux, organisation des tribus nomenclature des khalifaliks, aghaliks et kaidats, Paris.

7. Prévost, Virginie,(2011), l'ibadisme berbère, la légitimation d'une doctorine venue d'orient dans, Annliese Nef et Elise voguet, la légitimation du pouvoir au maghreb médieval de l'orientalisation à l'émancipation politique, Madrid, collection de Caza de Velazquez, n127.

8. Charles, Feraud,(1872), histoire des villes de la province de Constantine, Setif-Borj-Bou-Areridj-Mesila-Bousaada, Constantine, Algérie .

9. Lewicki , Tadeusz,(1957), la répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du nord au moyen age in Rocznk orientalistyczny, tomXXI.

10. Ibrahim, Jadlla,(2003), les fatimides et les kutama, une alliance stratigique ou un mal néecessaire,France, mélanges de l'ecole française de Rom, moyen age, Tom 115, n01.

11. Sumaiya, Hamdani,(2008), between revolution and state, the path to fatimid statehood, a reading guide prepared by Shaftolu Gulamadov, the institu of Ismaili Studies.

12. Paule louis, campuzat,(2011),l'évolution des cités du tell en Ifrikya du V au XI siecle, office des publications universitaires, Alger, tom1.

13. Chafik T.Benchekroun,(2009), ecriture et réécriture de l'histoire des idrissides entre la littérature historique zaydite des IX-X siécles et l'historiographie mérinide malékite des XIII-XIV siécles.

14. Aleya, Bouzid,(-9-11 Mars, 1999), apropos de la mobilité des tribus berbères dans l'espace Maghrebin au moyen age :l'exemple des Kutama, mobilité des hommes et des idées en Méditerranée, actes du colloque d'histoire, Faculté des lettres et des sciences humaines-Sousse, Tunisie.

المنارة للاستشارات

ww

10. ملاحق:

الجدول 1: (جدول يوضح فروع قبيلة كتامة وتوزيعها الجغرافي من خلال مؤلف عيون الأخبار لعماد الدين القرشي)

المنطقة	القبيلة	الصفحة
سوجمار	سماتة	85
فج الأخيار	بني سكتان	88
ايكجان	بني سكتان	88
تازروت	غشمان	89
سطيف	عجيسة	105
كجارمة	لطاية	112
نواحي سطيف	لهيصة	113
كبونة	اجانة	117
سطيف–قسنطينة	بني هراش	333
قالمة	بني ورديم	128
تيجس	هوارة	120
ضواحي تيجس	بني مغار	120

الشكل 1: (خريطة توضح الإنتشار القبلي في المغرب الأوسط خلال القرن 4هـ.

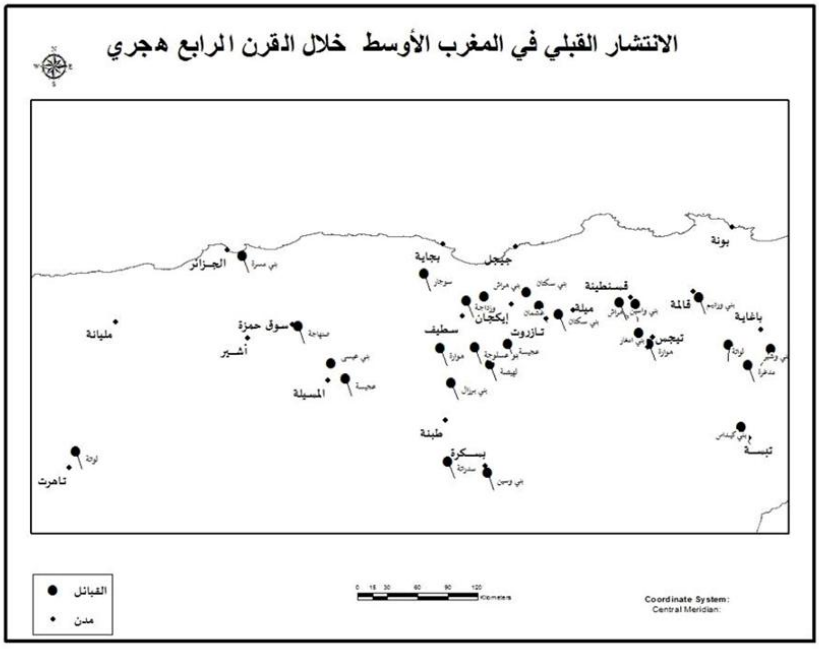

المنارة للاستشارات
ww